

الفصل الخامس والعشرون

ومن الحماسة الحمقاء والجهالة الجهلاء أن يحاول مُحاول إحصاء الأيام والليالي وهي تتابع ويقفوا بعضها إثر بعض، لا يدري أحد متى ابتدأت، ولا يعلم أحد متى تنتهي، وأشد من ذلك حمقًا وأعظم من ذلك جهلًا أن يُحاول مُحاول إحصاء الحوادث التي تقع في هذه الأيام المتتابعة والليالي المتناسية؛ فليس إلى إحصاء هذه الحوادث من سبيل حين تحدث لفرد واحد، فكيف بها حين تحدث لأسرة كبيرة أو صغيرة؛ وكيف بها حين تحدث لمدينة من المدن أو إقليم من الأقاليم أو جيل من أجيال الناس! فهي متنوعة كثيرة التنوع، مختلفة عظيمة الاختلاف، يعظم بعضها ويجل خطره حتى يصبح له في حياة الفرد والجماعة أبعد الأثر، ويهون بعضها ويدقُّ شأنه حتى لا يحفل به حافل ولا يلتفت إليه ملتفت، وهو مع ذلك خيط مهما يكن دقيقًا هيئ الشأن فله مكانه ذو الخطر في هذا النسيج الذي ينسجه مر الأيام وكر الليالي والذي نسميه الحياة، وقد فطن لذلك الذين يكتبون التاريخ ويسجلون الأخبار، والذين يقصُّون القصص ويتحدثون بأبناء الماضي، فقال قائلوهم: عاش ما شاء الله أن يعيش، وأقام ما أتاح الله له أن يقيم. وقال قائلوهم: مرِّي يا أيام وكري يا ليالي، فما أسرع ما يكبر أبناء الأحاديث! وليس لهذا كله إلا معنى واحد، وهو أن محاولة إحصاء الأيام والليالي عبث، ومحاولة إحصاء ما يقع فيها من الحوادث والخطوب سخف، فالخير أن نطوي من ذلك كله ما يجب أن يُطوى، وألا نقف من ذلك كله إلا عند ما يستحق أن نقف عنده ونفكر فيه.

ونحن مع ذلك لا نحسن تمييز اليوم ذي الخطر من اليوم الذي لا خطر فيه، ولا التفريق بين الحادثة ذات الأثر البعيد، والحادثة التي ليس لها أثر قريب أو بعيد، وإنَّما نحن نقدر الأيام والحوادث كما نستطيع وكما يصور لنا العقل والخيال، فأما تقديرها كما ينبغي أن تُقدر، وتصويرها كما يجب أن تُصور، فذلك شيء أكاد أعتقد أنه أبعد